نحو مشروع ثقافي عربي لمواجهة الهجمة المعادية

د. نادية خوست

التطبيع في اللّغة من الكلمات الوافدة، من جنس كلمة «وفاق» التي دُشِّنتْ بها الحروبُ الطّاحنة بين القوميّات والطوائف.. والغزو الذي ترفرف فوقه القرارات الدوليّة، ومن جنس كلمة «السّلام» الذي اقتلع المعسكرَ الاشتراكي والتوازن.

فهل يمكن أن تكون العلاقات طبيعيّة بين المحتلّين وبين أهل البلاد المحتلّة؟ هل أُلغيت الموضوعات الصهيونيّة التي أُسّستْ عليها إسرائيل، وأعلن استنكار الفكر التوراتي والحلم بأرض الميعاد؟ بل يعلن توطين إسرائيل، وتوضع الأكثريّة العربيّة في محميّة ذاتيّة، لتسود الأقلّيّة اليهوديّة الوافدة على المياه والثروات والأسواق والأرض العربيّة. ويواكب احتفالاتِ التوقيع على التطبيع القصفُ الذي يحرق جنوب لبنان، والمذابح. لكن هذه التفاصيلَ في السّياق.

كانت الحرب العالميّة النوويّة المدمّرة مستحيلة، فكان لابدّ من أسلوب آخر يفكّك المعسكر الاشتراكي من مركزه. وكانت إسرائيل الكبرى صعبة ومكلفة بالقوّة العسكريّة. فكان لابدّ من صيغة توظّف، في المشروع الإسرائيلي، المالَ العربي والثّروةَ العربيّة والعملَ العربي، وتحكمها من منبعها إلى مصبّها، وتقيم من العرب شرطة النظام الجديد في الشرق الأوسط، فتوفّر الجيش الإسرائيلي الذي تنهكه الصدامات التفصيليّة. وقدّم الشمال المشروع كاتفاقيّة دوليّة محصّنة بالتوقيع الخارجي من تهمة التفريط والخيانة العظمى أو الهزيمة.

فهل التّطبيع علاقات بين جانبين متوازنين؟ لا يسمّي العالم الجديد الوقائع بأسمائها! لم يسم الحرب العالميّة الثالثة التي طوت المعسكر الاشتراكي حرباً بل وفاق. ولا يسمّي مدّ إسرائيل الكبرى بالاتفاقيّات احتلالاً، بل تطبيع. تُقدَّم الهزيمة الكبرى كانتصار أو حلّ سياسي عاقل، واقعي. وتنظَّم لما كان يسمّى في العالم القديم خيانة عظمى، احتفالاتٌ علنيّة. فيصيب ذلك العرض المسرحي هدفاً آخر: يفكّك روحَ العربي ويرسّخ يأسه، ويلغي حلمه.

في الهزائم العسكريّة يلجأ المقاومون عادة إلى الجبال أو الكهوف أو الغابات، فتظلّ للمقاومة مساحةٌ من الأرض تبدأ منها. لكنَّ المشروعَ الشمالي الصهيوني للشرق الأوسط يلغي الكهوف التي قد تلجأ إليها المقاومة العربيّة، ويوفّر على المحتلّين استنزاف قواهم العسكريّة، فينصب أمام المقاومة العربيّة المحتملة قوى عربيّة تلتزم بحماية الاتّفاقيّات مع العدو كاتّفاقيّات دوليّة. وها هي الأرض العربيّة تحترق بأنواع من الحرب العربيّة ـ العربيّة: باسم الوحدة في اليمن، وباسم الاستقلال الذّاتيّ في العراق، وباسم الإسلام في الجزائر ومصر. فيقسَّم الوطن إماراتٍ بل حارات، ويدمّر السّلاحُ العربي، ويجري الدمّ بعيداً عن مكان الاستشهاد. وتستنزف زيادة السكّان ليتحقّق الحلم بأرض دون شعب.

ويذكّرنا ذلك بإنجازات الشّمال يوم ابتكر قنابلَ تدمِّر البشر لكنَّها تبقي الخيراتِ المادّيّة للمنتصرين. فمن صفات تلك القنابل أن تفرض علينا احتفالات بإحراق المثل الإنسانيّة والوطنيّة، وأن نخلعَ ضمائرنا، ونلغي تراثنا الوطني، وندمّرَ ما أسّست عليه البنية الرّوحيّة العربيّة. لذلك نلتفت إلى الثّقافة ونفحص عودها، ونتساءل كيف تقاوم غزو الرّوح، وكيف تستطيع أن تواجه الواقعَ. وأيّ واقع، تُغيِّر فيه حتّى المياه اتّجاهاتِها! وقد عرفنا قبل اليوم الحروبَ القاسية، لكن بلادنا لم تعرف مثيلِ ما يفرضه اليوم المشروع العالمي، لأنَّ العالم لم يعرف قبل اليوم التخطيطَ العلمي لتغيير العالم والتدخّلَ في الضّمائر والبيوت. ولعلّ الاشتراكيّةَ التي استقرّت ثلاثة أرباع

القرن، ورسخت علاقاتٍ عالميّة غير معروفة قبلها، تثير الرّعب من عودتها نظاماً عالميّاً. فيرمي العالم إلى الظلمات، ليكسبَ النظامُ العالمي الجديد مزيداً من العمر.

نقلت الحروب الصليبيّة بلادَنا المتحضّرةَ المتقدّمة على أوربا إلى ظلام القرون الوسطى. لكنّنا نتبيّن خلالها محوراً ثابتاً، يعبر حتّى مناوراتِ الحكّام الضعفاء والمتهاونين: هو إنكارُ الاحتلال، والإيمانُ بأنّ الغرباء ليسوا من المنطقة. نرى سبي المدن وبيع أهلها عبيداً، لكنّنا لا نرى مصادرة قرارها السّياسي، والإصرارَ على جمع حكّامها على منصّة واحدة ليوقّعوا الاعتراف بأنّ العدوَ شريكٌ أو حليف. ونرى المراكزَ والأطراف تفلت من المحتلّين، وتُنبت القيادات التي تقاوم الغزو، والشّعراءَ ينشدون القصائد في بسالة المقاومين. ولعلّ ذلك الزّمنَ فُحص في دقّة كي يحكمَ المشروعُ المقترح للشّرق الأوسط فلا يتكرّر طرد الغزاة.

وأيّة رياح تناسب العنصريّةَ أكثر من هذا الزّمان؟ حَلَّ العصرُ الذي تحدّث عنه الكاتب الرّوسي دستويفسكي: العصرُ الذي يسود فيه المرابي اليهودي، فتفسد الأخلاق، وتنتشر الفوضى والشّراسة والقسوة، وتمزّق العلاقات الإنسانيّة، وتحكم العالمَ سطوةُ المال. ونحن فيه في منطقة الصدام وقت الغروب. وقد ضيّعنا الزّمن الذي حكمته علاقاتٌ عالميّة أخرى، ولم نغرس قوى راسخةً وعلاقاتٍ مؤهّلةً للدّفاع عن النّفس. والثّروةُ العربيّة أنعشت العلاقاتِ الرأسماليّةَ العالميّة ورتقت المؤسّساتِ الغربيّة، ولم تسدّد في مشروع عربي. لم يفعل العرب ما فعلته الصهيونيّة، التي جنّدت أموال العالم، والقوّةَ العلميّة والبشريّة والمهارة الماليّة والسياسيّة اليهوديّة في خدمة قضيّتها.

أمام الثّقافة هذا الواقع! ونحن اليوم نساق شهوداً على التنازل عن الخريطةِ العربيّة كلّها، وعلى رسم مسارات جديدة للأنهار والينابيع والبحيرات، وعلى تغيير اتّجاهات السير في الطرقات، وعلى فتح حدود المدن لمن كنّا نسمّيه العدوّ. نتفرّج على الاتّفاقاتِ التي يوقّع عليها المسؤولون العرب وسادة العالم الجديد. وقد أصبح ما كنّا نسمّيه خيانة، سياسةً مبرّرة بالمصلحة الوطنيّة العليا، وبالنّظرة السياسيّة العميقة. تسلّم للعدوّ المدن والطّرقات. وتبتكر قوى ذات مصلحة في الواقع الجديد. سيكون العدوّ في كلّ مكان: في زجاجة الكوكا كولا، والقميص، وحبّة الفاكهة، في خيوط الحياة اليوميّة. وسيكون له صحفيّوه ومفكّروه وكتّابه وسينمائيّوه وجوائزه. وهل تخلّف مثقّفوه عن دعوتنا من منصّةِ غرناطة، إلى توطين العدوّ في الضّمير؟

لذلك نحتاج إلى مشروع ثقافي وطني متماسك: لحماية الأملِ، للدّفاع عن الكرامة الوطنيّة، وعن ذاكرة الحركات الوطنيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة، وعن الذّاكرة التّاريخيّة، وعن الرّموز التي يجب أن تتنقّل في حياة الأجيال.

لابدّ من مشروع للمقاومة الثقافيّة العربيّة! فأجهزة الإعلام العالميّة تتوغّل في البيوت. والتّفاهة التي رعتها المؤسّسات العربيّة رصيد العدوّ. وقد استُنبتت مواقعُ ثقافيّة ستخرق الحدودَ إلى العدوّ باسم الحضارة والحرّيّات، كما استنبتت مواقعُ ظلاميّة قد تكسر الصّيغ السياسيّة. ولا نجهلن أنّ المثقّفين الذين نناديهم لمواجهة الاحتلال الجديد، ليسوا ممّن سمّنته أو رعته منجزاتُ الأمس، بل عانوا حتّى الأمس القريب بما يناسبُ صلابَتهم، من منع السّفر ومنع العمل.

المشروع الثقافي الوطني أمام واقع متفرّد. فالغزو لا يقتحم الحدودَ الوطنيّة فقط، بل الضّميرَ نفسه. ويا للدقّة في صياغة أدونيس! فاقتراحُه هو أن نبحث عن حقّ العدوّ في خيوط هويّتنا، وأن نوطّنه في ضميرنا. لذلك يتّصل الدّفاع عن الوطن اليوم بالدّفاع عن الحقّ في الشّعور الوطني والإنساني، وعن الحضارةِ التي ترفض العنصريّة وتدين المجازر، وعن حصانة مسار النّسغ بين الأجيال، ورموز الذّاكرة التاريخيّة.

يُفترض أن يكون المشروعُ الثّقافي العربي مركّزاً، ومثابراً، يتجاوز الطريقة المعتمدة في المناسبات، ويَرقى إلى حاجة المواطن العربي الذي ما عاد يستسيغ الكلامَ المرتجل الكثيرَ، الهشَّ... ويتجاوز الشكلَ الإعلامي السياسي المملّ، وينبّه إلى الدراساتِ الجدّيّة التي ستحتكر بها إسرائيل التّاريخَ العربيَّ والعثمانيَ والإسلام... وينبّه إلى أنّ أجيالاً جديدة عربيّة تستنبت دون وعي بالخطر، غارقة في فقرها وهمومها، أو ملوّثة بالمعايير الجديدة طائرة على الأحلام الجديدة.

ويفترض أن يبدأ من دراسة الوضع الثقافي، ليتبيّن رموزه الملتبسة، ويجلو مسألة الحرّيّة وارتباطَها بالثّوابت الوطنيّة، ودورَ التراث الوطني في المناعة، ومقتلَه في التعصّب والتطرّف الدّيني والطّائفي. ولا تستطيع صياغة مثل هذا المشروع إلّا جبهةٌ واسعة من المفكّرين المخلصين للثوابت الوطنيّة، تقدّم الكفاءةَ والصّدق والجرأة على الانتماءات التفصيليّة.